بقلم الدكتور محمد جميل الحبال

قد يتساءل البعض...لماذا نتوجه في الصلوات في قبلة (مكة المكرمة)؟ ولماذا نطوف حول الكعبة التي في أحد أركانها الحجر الأسود؟ ولماذا يكون الطواف عكس اتجاه عقرب الساعة؟ ونبدأ من الحجر الأسود في طوافنا وفي كل شوط نسلِّم على الحجر الأسود ونحاول أن نستلمه أو نقبله إن استطعنا أو الإشارة بالسلام عليه والدعاء (بسم الله والله أكبر) عند الوصول إليه في كل دورة من دورات الطواف السبع...ولماذا سبعة أشواط سواءً كان حجاً أو عمرةً أو نافلة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نقول وبالله التوفيق...إن إتباع هذه المناسك وتطبيقها هو عبادة والتزام وإقتداء بأفعال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بغض النظر عن كل شيء فهذه أمور موقوفة ونحن كوننا مسلمين لذا وجب علينا أن نكون خاضعين ومنقادين لأوامر الله عز وجل في قرآنه وأوامر رسوله الكريم في سنته لقوله صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني مناسككم وصلوا كما رأيتموني أُصلي)[١]، كالجندي الذي لا يعصي أمراً لقيادته إذا أراد النجاح والفوز بالمعركة فعليه أن يطبق التعليمات والأوامر التي تصدر منها. ولكن...نحن على يقين أن وراء هذه الأوامر الإلهية حكمة وفائدة لنا قد نعرفها أو لا نعرفها لأن الباري عز وجل الذي خلقنا وصوّرنا هو أعلم وأرحم بنا من أنفسنا قال تعالى: ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))[٢] . فعندما يأمرنا بشيء فهو متناسق مع فطرتنا وخلقنا ومع الكون من حولنا ولمصلحتنا.

أن الباري عز وجل غني عن العالمين ولا حاجة له بطاعتنا أو عبادتنا له وإنما الأمر يعــود لنا ولمصلحتنا كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (يا عبادي لــو أن أولكم وآخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيء...)[٣] فإذاً لابد أن يكون هناك في هذه العبادات أسراراً ومنافعاً تعود بالخير والفائدة للفــرد والمجتمع ولا بأس من التعرف على هذه الحكم والفوائد والإشارات التوافقية الموجودة فــيها مع الكون والإنسان والحياة، حيث إن الإسلام شريعة كونية إضافة لكونه منهاجاً كاملاً للحياة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - فبالنسبة للتوجه إلى مكة المكرمة والتي في وسطها الكعبة المشرفة والمسجد الحرام :فإن الله سبحانه وتعالى يقول (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره)[٤] . لقد أثبتت الدراسات المتعددة ومنها دراسة الدكتور حسين كمال الدين رئيس قسم هندسة المساحة في جامعة الرياض أن (مكة المكرمة) هي مركز اليابسة على سطح الكرة الأرضية وهي تقع في المركز.

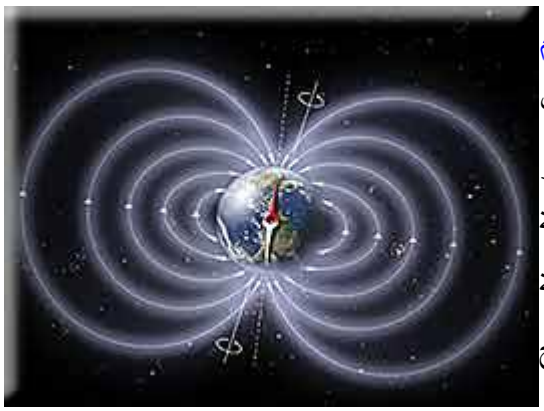

وكذلك قام الأستاذ الدكتور روبرت كولمان[٥] من جامعة ستانفورد في أمريكا بدراسة مركز جذب الأرض والتقاء الإشعاعات الكونية للجاذبية على سطح الأرض (مركز التجمع الإشعاعي للتجاذب المغناطيسي) فوجدها تلتقي في نقطة على سطح الأرض (والتي تمثل مركز جذب الأرض في مركزها) وعندما أراد معرفة الموقع الجغرافي لهذه المنطقة وجد أنها (مكة المكرمة)!. فإذن مكة المكرمة التي في وسطها المسجد الحرام والكعبة المشرفة هي مركز القارات السبع (اليابسة) أولاً وكذلك نقطة التقاء وتجمع الأشعة التجاذبية المغناطيسية ثانياً، لذلك وصفها الباري عز وجل في محكم كتابه بأنها (أم القرى) وأم الشيء هو وسطه وقلبه وأساسه وذلك في قوله تعالى:(وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير))[٦] وهكذا اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الكعبة المشرفة في المسجد الحرام (أول بيت وضع للناس) وأن تكون قبلة المسلمين في كل مكان ولذلك أطلق عليها القرآن الكريم (أم القرى) ووصف الأمة الإسلامية (بالأمة الوسط) في

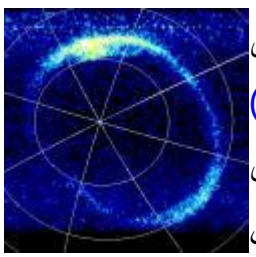

قوله تعالى:(وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا))[٧] ومن معاني ذلك الكثيرة أن أمة الإسلام الوسط (وسط في كل شيء) تتجه إلى (أم القرى) التي هي وسط ومركز اليابسة الأرض وهي مركز الجذب الروحي كما هي مركز تجمع الأشعة المغناطيسية للجاذبية الأرضية فهي أمة التوحيد والتوحد .

٢ - وبالنسبة للطواف حول الكعبة عكس اتجاه عقرب الساعة : ففيه إشارة واتفاق لحركة الكون جميعاً، حيث أن الكون من الذرة إلى المجرة يدور بهذا الاتجاه. والدوران ظاهرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كونـــية تشـــمل كـــل شـــيء، فالإلكترون يدور حول النواة والأقمار تدور حول كواكبها والكـــواكب تـــدور حول شموسها والشموس والنجوم تدور حول مركز مجرّاتها والطاقة تـــدور في مساراتها وكلها تدور باتجاه واحد (عكس عقارب الساعة) كما يطوف الحجيج حول الكعبة (وذلك في حالة النظر إليها بصورة أفقية كما في حالة الطواف حول الكعبة) إنهـــا رمز للظاهرة التي فطر الله عليها الكون كلّه والطواف سنة الله الواحد الأحد في هذا الكون ((وكل في فلك يسبحون))[٨] وقال تعالى: ((كل يجري لأجل مسمى))[٩] .

٣- وبالنســـبة للـــدوران حول الحجر الأسود الذي هو في أحد أركان الكعبة الأربع :فهذا قد يكـــون (والله أعلم) إشارة إلى الثقب الأسود (Black Hole)

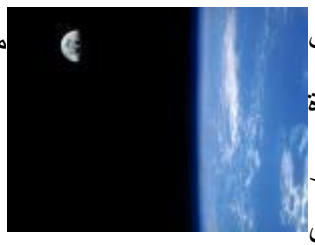

فإن كل مجرة من المجرات الموجودة في الكون المعروف منها لحـــد الآن أكثـــر من ١٣٠ مليار مجرة (تحتوي كل مجرة علـــى نحو من مائة مليار نجم كمجرتنا درب التبّانة) تدور حـــول مركـــز معين وُجِد أن فيه هذا الثقب الأسود الفائق الكـــثافة بحـــيث أن كثافته تبتلع الضوء والمجرات القريبة (فلو فرضنا أن الكرة الأرضية أصـــبحت ثقـــباً أسوداً فإن كتلتها ستكون بحجم كرة المضرب (البنك بونك) فتصور عظم الكـــثافة والـــوزن لهـــذه الكـــرة الصغيرة) ويُمسك كواكب ونجوم مجرته للدوران حوله ويمـــنعها من التفلّت ((وكل في فلك يسبحون))[١٠] وكذلك يمنعها من الاصطدام ببعضها فـــي حـــركة تناســـقية منتظمة، وهكذا جموع الحجيج من كل بقاع الأرض تطوف حول الكعبة التي فيها الحجر الأسود في حركة تناسقية توافقية رائعة متناغمة فيا عظمة الخالق المدبّر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن هــذه الكــواكب والمجمــوعات الشمسية في المجرات والتي تدور حوله ولا تصــطدم ببعضــها إنما يأتي دورانها متوافقاً ومتناسقاً مع قوله تعالى: ((لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر))[١١] أي لا تلتقي أو تصطدم مع بعضها وفيه كناية بالخاص (الشمس والقمــر) يــراد به العام (جميع الشموس والكواكب والأقمار ...الخ). فكذلك الحجيج في الطــواف فإنهم يبدؤون بالحجر الأسود ويطوفون حوله ويسلمون عليه في كل شوط من أشــواط الطــواف في نظام وتناسق بديعين وكأن هذا الحجر الأسود هو الذي يضبط هذا الإيقاع في طواف الحجيج حول الكعبة المشرفة ويجذبهم نحوها ويمنعهم من التفلت والتيه والاضطراب في هذه الحياة، كما يضبط الثقب الأسود في مركز المجرات حركة ودوران المجمــوعة الشمسية والكواكب وغيرهما وهي تسير في سرع متناهــية وذات كتل هائلة تساعدها على التفلت من خط سيرها الدقــيق فــي القــوى الطاردة عن المركز ولكن بواسطة قوة الجــذب الهائلة للثقوب السوداء فإنها تبقى ملتزمة بخط سيرها لا تحــيد ولا تمــيد في نظام دقيق ثابت إلى أن يرث الله الأرض ومــن عليها وفي ذلك مغزى عظيم للمسلمين بأن تكون حياتهم مرتبطة بدينهم ويلتزمون بالنظام في جميع أعمالهم!.

٤ - لمــاذا نقبل الحجر الأسود؟:وهو حجر لا يضر ولا ينفع كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما خاطبه بقوله: (إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنني رأيت رسول الله يقــبلك ما قبّلتك)[١٢] ولعلّ الحكمة في هذا التقبيل تكمن في ذلك الاتصال بين رسول الله صــلى الله علــيه وســلم وأمته، فهو اتصال من نوع خاص، اتصال عاطفي وروحي وقلبــي وكياني وكأنه عليه الصلة والسلام قبَّلَ الحجر الأسود ليكون هذا بمثابة الاتصال المــادي والحسي بينه وبين أمته، أليس هو القائل: (وددت لو أني رأيت أحبابي) وفي هذا روى بعــض المستشــرقين وأعــداء الدين الذين يعدون أن تقبيل الحجر الأسود من بقايا الوثنية في الإسلام وهم لا يعلمون الحكمة من ذلك وهي حب النبي محمد صلى الله عليه وســلم لأحــبابه الــذين لم يراهم ولم يروه وآمنوا به والذين سيأتون من بعده كما أسلفنا لقوله: (طوبى لمن رآني وآمن بي ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني)[١٣] وقوله صــلى الله عليه وسلم: (وددت لو رأيت إخواني قالوا أولسنا إخوانك يا رسول الله قال لا أنــتم أصــحابي ولكــن إخوانــي الــذين يأتون من بعدي ويؤمنون بي ولم يروني)[١٤] فالصــحابة رضــوان الله علــيهم كانــوا يرون الرسول صلى الله عليه وسلم ويصافحوه ويعانقــوه ويســمعون الوحــي المنَزّل عليه من فمه الشريف، وهذا ما جعلهم من أفضل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الـــناس كجيل فريد متميز أما المؤمنون من بعدهم فهم لم يواكبوا هذه الأحداث الملموسة وآمنوا بها بالرغم من عدم رؤيتهم لها فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطبع على جبـــين كـــل واحد منهم بمثابة وسام تكريم لهم على إيمانهم ومحبتهم لهذا الدين من خلال تقبـــيله الحجر الأسود، فكأنما صار هذا الحجر الواسطة بينهم لنقل هذه المشاعر وتقليدهم هذا الوسام الرفيع.

٥- لماذا الطواف في الكعبة سبعة أشواط؟: فإن الكون بما فيه الإنسان تحكمه وتسيره قوانين ونظـــم دقـــيقة وبتقدير محكم من رب العالمين قال تعالى في أول سورة الفرقان: ((وخلق كـــلّ شيء فقدّره تقديرا)) وكذلك جميع المخلوقات والأحياء بما فيها الإنسان كما في قوله ســـبحانه وتعالـــى في سورة التغابن: ((خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صـــوركم وإلـــيه المصير))[١٥] وقوله في سورة الذاريات: ((وفي الأرض آيات للموقنين وفـــي أنفسكم أفلا تبصرون))[١٦] ولمّا كان القرآن الكريم هو منهاج الكون والحياة وهو كلام رب العالمين الأزلي والكون هو من خلق رب العالمين فلأن مصدرهما واحد فلا بد أن تـــربط بيـــنهما قوانين ونظم واحدة، خاصّة أن القرآن هو السابق والكون هو اللاحق ومـــن إحدى هذه المنظومات أو القوانين هو النظام السباعي (والله أعلم) فالسماوات السبع والأرضـــين الســـبع وطبقات الجو (الغلاف الجوي) سبع وطبقات الأرض سبع والطيف الشمسي سبعة ألوان ومدارات الذرة سبعة (وهي التي تدور بها الإلكترونات حول النواة) وعدد أيام الأسبوع سبعة وغيرها كثير. وفي القرآن الكريم هذا الكتاب المعجز تحكمه في تـــرتيب آياته وسوره وكلماته وأحرفه هذه الظاهرة (المنظومة السباعية) استناداً لقول الله تعالـــى فـــي سورة الحجر:((ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم))[١٧] والسبع المثانـــي هـــي سورة الفاتحة التي تقوم على هذه القاعدة أيضاً وقد قال الرسول صلى الله علـــيه وسلم: (أنزل القرآن على سبعة أحرف) فإذاً لمّا كانت هذه القاعدة إحدى النظم التي خلـــق بموجـــبها الكون، بموجب المنهج القرآني كما قلنا سابقاً، فقد جاءت بعض العبادات متناســـقة مـــع هـــذه الظاهرة والتي منها الطواف حول البيت سبعة أشواط[١٨] والله أعلم لـــتكون مـــثالاً علـــى هذا التناسق البديع في خلق الكون والإنسان ولتكون هذه العبادات منســـجمة مع فطرته ومع النواميس الكونية قال تعالى في سورة الروم: ((فطرة الله التي فطـــر الـــناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))[١٩]

.صدق الله العظيم

الدكتور محمد جميل الحبّال / الموصل- العراق

ص ب .(٤٠٨٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Email: mahmod.m@uruklink.net

[1] رواه مسلم والنسائي .[٢] سورة تبارك/١٤.[٣] رواه مسلم (حديث قدسي) .[٤] البقرة/١٤٤.
[5] Robert Colman – Stanford University –USA./مجلة علوم / العدد ٦٨ /ص٩٢/١٩٩٢م.[٦] الشورى/٧.[٧] البقرة/١٤٣.[٨] يس/٤٠.[٩] الرعد/٢.[١٠] يس/٤٠.
[11] يس/٤٠.[١٢] أخرجه الجندي في فضائل مكة وأبو الحسن القطان في المطولات والحاكم والبيه قي في شعب الإيمان .[١٣] أخرجه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه .
[14] رواه الإمام أحمد وأبو يعلى .[١٥] التغابن/٣.[١٦] الذاريات/٢٠-٢١.[١٧] الحجر/٨٧.
[18] قال ابن عباس (رضي الله عنهما) عندما سئل عن ليلة القدر: (إنّ الله تعالى وتر يحب الوتر فجعل أيام الدنيا تدور على سبع، وخلــق الإنسان من سبع، وجعل فوقنا سنوات سبعاً وخلق تحتنا أرضين سبعاً وأعطى من المثاني سبعاً ونهى في كتابه عن نكاح الأقــربين عــن سبع، وقسّم الميراث في كتابه على سبع ونقع في السجود من أجسادنا على سبع وطاف رسول الله صلى الله عليه وســلم بالكعــبة سبعا وبين الصفا والمروة سبعاً ورمى الجمار سبع لإقامة ذكر الله في كتابه فأراها في السبع الأواخر من شهر رمضان والله أعلم) قوله رضي الله عنه. كتاب الدر المنثور في التفسير المأثور للإمام السيوطي: ٥٧٨/٣.[١٩] الروم/٣٠

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com